

قناة لوغوس بالولايات المتحدة الأمريكية

أكتوبر - نوفمبر ٢٠١٦ م

الحلقتان ٢٧، ٢٨

العناصر الليتورجية لتقديس مياه المعمودية

قبل قدّاس الماء

معنى تقديس مياه المعمودية

يُسمّى جُرْن المعمودية في اليونانية κολυμβήθρα (كوليمفيثرا) وهي نفس الكلمة القبطية أيضاً، حيث ترد هذه الكلمة بنصّها في قدّاسات اللقانات الثلاثة في الكنيسة القبطية. كما تُسمّى المعمودية أيضاً ἰορδάνης (يوردانيس) أي "الأردن" وهو أيضاً اللقب الذي يُلقب به اللقان في قدّاسات اللقانات. والمقصود بالكلمة عموماً، امتلاء الجرن بالماء^(١).

وفي الطقس القبطي - ويشاركه الطقسين الكلداني والماروني - يكون تقديس مياه المعمودية على نمط طقس القدّاس، وعبارات تقديس المياه نحل محل الأنافورا. أمّا السريان، فهم أكثر إيجازاً، ولذا يكتبون بإيقاد شمعتين توضعان على جانبي جرن المعمودية، والصليب موضوع على الجرن، حيث يتلو الكاهن صلاة مختصرة^(٢).

وتمسك الكنيسة الشرقية عموماً بتقليد عام، وهو أن تبريك مياه المعمودية لا يكون إلا في لحظة العماد نفسها، حيث تُعيد تجديد هذه الخدمة في كل مرة يُمنح فيها هذا السرّ المقدّس. أمّا الكنيسة الغربية فتقدّس جرن المعمودية ومياه المعمودية في السبب المقدّس الكبير، وعشيّة عيد العنصرة فقط من كل سنة. ولعلّ هذه الممارسة هي الوحيدة المتبقية للكنيسة الغربية تذكراً للاحتفال المهيب بطقس التعميد الذي كان يتم في هذين اليومين من السنة الليتورجية.

وعلى الرغم من أن تقديس مياه المعمودية لا يستند على نص صريح لكتاب العهد الجديد، إلا أن القدّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩ م) يعتبره إحدى الممارسات التي تعتمد على التقليد الشفاهي الخالص فيقول:

[العقائد والممارسات التي تقبلها وتحفظها الكنيسة، بعضها يستند على التعليم المكتوب، والبعض قبلناه سرّاً وهو تسليم الرُّسل. وهذان هما دعامة الإيمان الصحيح، ولهما نفس القوّة. وهذا لا يعترض عليه أحد، لاسيّما من توفّرت له خبرة بممارسات الكنيسة... وإذا رفضنا عادات الكنيسة، فسوف نجرح الإنجيل نفسه، بل نحول التعليم إلى اسم بلا معنى... فتقديس مياه المعمودية، والميرون، وطريقة قبول وتعميد الموعوظين، هل لها مصدر مكتوب؟ أليس مصدر كل هذا هو التسليم السري؟... الخ]^(٣).

وإنّ التفكير في تكريس مياه المعمودية بواسطة الصلوات هو أمرٌ مرتبطٌ بمبدأ ورثته الكنيسة المسيحية من المُخلص نفسه، بأنّ عنصر الماء هو واسطة للخلافة الجديدة. ولقد عبّر كلٌّ من كتاب "الرّاعي" لهرماس، ورسالة برنابا (القرن الثاني الميلادي) بوضوح، عن المفاهيم السرائرية لمياه المعمودية، بعد تقديسها. وقال عنها القدّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠ م):

^١ BSAC., t. 11, p. 55.

^٢ الطقوس الشرقية، مرجع سابق، ٨٥، ٨٦.

^٣ De spiritu sancto, c. xxvii, 66.

[بالماء المقدّس واستدعاء الرّب، نحصل على الحرّية من الرّدائل السّابقة]^(٤).

وهذا لا يعني تحوّلاً ظاهراً للعيان لمياه المعمودية عن خاصيّتها كمياه، لكن المياه تكتسب قوّة تقديسيّة باستدعاء الرّوح القُدّس أو أقانيم الثّالوث القُدّوس، حيث تصبح واسطة لميلاد جديد في المسيح. وإنّنا لا نجد أيّ نصّ ليتورجي يدعو إلى تغيير مادة المياه إلى مادة أخرى.

وأحدت بإيجاز عن العناصر الليتورجية لتقديس مياه المعمودية، والسّابقة مباشرة لقُدّاس المعمودية في الكنيسة القبطيّة.

(١) سكب الزّيت العادي على مياه المعمودية

يذكر كتاب المعمودية ما يلي: يدخل الكاهن إلى المعمودية، ثمّ يأخذ الزّيت السّاذج (العادي) ويسكب منه فيها. بمثال الصّليب، ثمّ يقول:

”باسم الآب والابن والرّوح القُدّس إله واحد. مبارك الله الآب ضابط الكلّ أمين. مبارك ابنه الوحيد يسوع المسيح ربّنا أمين. مبارك الرّوح القُدّس المعزي أمين. مجدّاً وإكراماً ومجدّاً للثّالوث القُدّوس الآب والابن والرّوح القُدّس. الآن وكلّ أوان وإلى دهر الدّهور أمين“.

أمّا كتاب ”التّرتيب الطّقسي“ للبابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) فيذكر أنّ سكب الزّيت في مياه المعمودية يكون ثلاث مرّات بمثال الصّليب. وهو نفس ما يذكره كتاب المعمودية المطبوع سنة ١٩٢٩م. بمعرفة القمّص يوحنا غبريال.

(٢) صلاة سرّيّة يقولها الكاهن

يُصليّ الكاهن صلاة سرّيّة - بحسب كتاب المعمودية - يقول فيها:

”ادع عبيدك يا سيّدي إلى نورك الطّاهر. اجعلهم مستحقّين هذه النّعمة العظيمة التي للعماد المقدّس. عرّهم من الإنسان العتيق، وجدّد ميلادهم بالحياة الأبديّة. املاهم من قوّة روحك القُدّوس، بمعرفة مسيحك، لكي لا يصيروا بعد أبناء الجسد بل أبناء الملكوت، بمسرة نعمة ابنك الوحيد يسوع المسيح ربّنا، هذا الذي من قبله يليق بك معه ومع الرّوح القُدّس، المجد والإكرام ... الخ“.

وهذه الصّلاة موجودة أيضاً في الكنيسة اليونانيّة في طقس المعمودية. ووُجدت أيضاً مع بعض الإضافات أو الحذف في طقس المعمودية السّرياني. وكذلك في ترتيب المعمودية الذي وضعه القديس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥-٥٣٨م).

ومنذ أواخر القرن الرّابع الميلادي، نسمع عن صلاة تُصليّ على جُرن المعمودية. فيذكر مخطوط مؤرّخ بتاريخ سنة ٧٠٨ش/ ٩٢٢م صلاة مقدّسة على جُرن المعمودية معروفة منذ سنة ٣٨٥م، أي في السّنة الأولى لحرّية البابا ثاوفيلس (٣٨٥-٤١٢م) بطريك الإسكندريّة الـ ٢٣ فيقول المخطوط: ”وعندما يملأون الجُرن *κολυμβήθρα* بالماء، يتقدّم رئيس الأساقفة مع باقي الأساقفة، ويُصلّون على جُرن المعمودية“^(٥).

(٣) صلاة الشّكر ورفع البخور

يُصليّ الكاهن صلاة الشّكر، ويرفع البخور.

⁴ PG vii, col. 1247- 1248.

⁵ BSAC., t. 11, p. 71.

(٤) القراءات والإنجيل

مزمور الإنجيل: «طوباهم الذين غُفرت لهم آثامهم وسُتِرت خطاياهم. طوبى للرجُل الذي لم يحسب له الرَّبُّ خطيئة ولم يوجد في فمه غش. الليلويا» (مزمور ٣١: ٢). **والإنجيل المقدّس:** وفيه يقول الرَّبُّ لنيقوديموس: «الحق الحق أقول لك: إن كان أحدٌ لا يولد من الماء والرُّوح، لا يقدر أن يدخل ملكوت السَّموات ...» (يوحنا ٣: ١-٢١).

وأهمّية الكلمة الإلهية للسّر الكنسي، هي أهمّيتها للحياة نفسها. فبالكلمة وُجدت الحياة «وقال الله ليكن ... فكان ...» (تكوين ١). فمنذ بداية الخليقة، وُجدت الحياة بالماء والرُّوح والكلمة، إذ كان على وجه الغمر (المياه) ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه، وقال الله ليكن نورٌ فكان نور. وهكذا الآن أيضاً تصير الخليقة الجديدة للإنسان، بالماء والرُّوح والكلمة.

(٥) السّبع أواشي الكبار

بعد قراءة الإنجيل تُقال الأواشي الآتية:

١- المرضى ٢- المسافرين ٣- المياه أو الزُّروع أو الأهوية ٤- الملك (٦) ٥- الرّاقدين ٦- القرايين ٧- الموعوظين. أمّا القس أبو البركات بن كبر (١٣٢٤م) فيذكر أوشيّة ثامنة تُقال بعد أوشيّة القرايين، وهي أوشيّة "الموضع المقدّس".

(٦) طلبية: يا إله الأنبياء وربّ الرُّسل

يقول الكاهن: "يا إله الأنبياء وربّ الرُّسل ... أرسل قوتك المقدّسة لتتقدّم هذا العماد، وتقوّي عبيدك، وتُعدّهم، لكي يستطيعوا أن ينالوا العماد الطاهر الذي للميلاد الجديد لغفران خطاياهم، والرّجاء غير الفاسد بابنك الوحيد يسوع المسيح ربّنا، هذا الذي ... الخ". ولم يورد ابن كبر (١٣٢٤م) أيّة إشارة عن هذه الصّلاة.

(٧) صلاة وضع يد

صلاة وضع اليد هي صلاة التّحليل المختصّة بليتورجية المعمودية، والتي تقابل تحليل الخدّام في ليتورجية القدّاس الإلهي. وفيها يقول الكاهن: "عبيدك ياربُّ الذين يخدمونك ويدعون اسمك القدّوس ويخضعون لك، حل فيهم ياربُّ وسير بينهم وساعدهم في كلِّ عمل صالح. اهض قلبهم عن كلِّ فكر أرضي رديء. امنحهم أن يجيوا ويفكروا في ما للأحياء ويفهموا الذي لك. بابنك الوحيد ربّنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، هذا الذي من قبله يليق بك المجد والإكرام والعزّة والسُّجود، الآن وكلّ أوان ... الخ".

(٨) صلاة سرّية للكاهن وهو منطرح على جُرن المعمودية

وهي صلاة موجودة بنصّها في الطّقس البيزنطي أيضاً. وفيها يقول الكاهن: "أيها الرّحيم الرؤوف المتحنّ ... لا تمقنتي ولا تصرف وجهك عنّي، بل لتهرب عنّي في هذه السّاعة جميع سيئاتي، يا من يغفر خطايا البشر ويُقبل بهم إلى التّوبة، اغسل دنس نفسي وجسدي، وطهّرني بالكمال بقوتك غير المرئية ويمينك الرُّوحية، لكي إذا ما قرأت لآخرين تحليلاً يطلبون منّي أن أعطيهم لهم، الذي هو الإيمان الذي هيأته عظم محبّتك للبشر التي لا يُنطق بها، لا أكون أنا مداناً كعبد للخطيئة، كلاًّ أيها السيّد الذي بلا خطيئة وحده، الصّالح وحده، الحب البشر، لا يرجعن المذلّول خازياً بل كن لي غافراً، أرسل قوتك من علوك المقدّس، وقوّني لكي أعمل خدمة هذا السّر العظيم السّمائي، فليتصوّر المسيح في الذين ينالون صبغة الميلاد الجديد منّي أنا الشّقي، ابنهم على أساس الرُّسل والأنبياء، ولا تهدمهم بعد، اغرسهم غرس الحق في كنيستك، الواحدة الوحيدة الجامعة الرّسوليّة، لكي يتقدّموا في العبادة، وليتمجّد في كلِّ مكان اسمك القدّوس ...".

هنا يتركز مفهوم عمل الكاهن في تكميل الأسرار، أنّه ليس هو الذي يتمّم السّر بل المسيح نفسه. الكاهن يقوم بتأدية

^٦ يشير ابن كبر إلى أنّها أوشيّة الملك المسيحي، حيث يورد اسم الأوشيّة بالقبطيّة والعربيّة.

السّر، لكن بقوة المسيح التي يسبغها على الكاهن. هنا الكاهن خاطئ تائبٌ ينضم إلى الخاطئين التائبين، طلباً للغفران لنفسه وللآخرين معه. إذا فهو أوّل التائبين، كي ينتقل صفح الله وغفرانه عن طريقه للآخرين.

وجدير بالذكر أن ابن كبر (١٣٢٤م) لم يُشر في كتابه "مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة" إلى هذه الصلّاة، بينما أشار إليها البابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) في كتابه "الترتيب الطقسي".

(٩) الثلاث أواسي الكبار

وهي أواسي سلام الكنيسة والآباء والاجتماعات.

(١٠) قانون الإيمان

هنا يُقال قانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني. ويلاحظ القارئ حلول المصادر الطقسية القديمة من ذكر مقدّمة قانون الإيمان "نعظّمك يا أمّ الثور الحقيقي ... الخ"، وهي المقدّمة التي لا تعرفها كافة الكنائس الشرقيّة والغربية باستثناء الكنيسة القبطيّة. أمّا المصادر التاريخية لمقدّمة قانون الإيمان فغير معروفة حتى الآن^(٧).

(١١) نضح الغالبيلون على مياه المعمودية

يأخذ الكاهن الزيت المقدّس (زيت الغالبيلون) ويسكب منه في جُرن المعمودية ثلاث مرّات بمثال الصليب لتقديس الماء قائلاً: "باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد. مباركُ الله الآب ضابط الكُل أمين. مباركُ ابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا أمين. مباركُ الروح القدس البارقليط أمين". يقول الشمّاس: من الرّب نطلب.

أمّا البابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) فيذكر ترتيباً طقسياً أكثر دقّة ممّا ورد في كتاب المعمودية (لناشره مكتبة الحجة) في هذا الجزء من الطقس حيث يذكر:

- أن نضح زيت الغالبيلون في الماء بمثال الصليب يكون أثناء ترديد قانون الإيمان.
- أن الكاهن يسكب الزيت في المرّة الأولى باسم الآب، وفي الثانية باسم الابن، وفي الثالثة باسم الروح القدس.
- أن الكاهن يكمل بعد ذلك بالقول: "مجداً وإكراماً وإكراماً ومجداً للثالوث القدوس ... الخ".

يقول الكاهن: "يا جابل المياه وخالق الكُل، ندعو قوتك الطاهرة الذاتية، الاسم الذي يفوق كلّ الأسماء، الذي لابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا، الذي صُلب عنّا على عهد بيلاطس البنطي، نسألك يا ملكنا عن عبيدك، انقلهم وأبدلهم وقُدّسهم وقوهم، لكي من جهة هذا الماء وهذا الزيت تبطل كلّ القوّات المضادة. والأرواح الخبيثة امنعها وأرذلها وصدّها. كل سحر، وكل رقاء، وكل عبادة الأصنام، وكل تعزيم، أبطله".

وهذه الصلّاة تُسمّى صلاة استحلاف المعمودية^(٨)، وهي صلاة غير معروفة في الطقس البيزنطي.

ويجب أن يكون الماء غير ممزوج بشيء من السوائل الأخرى، كما لا يجوز مزجه بالماء الذي يُصلى عليه في قدّاسات اللقانات في أعياد الغطاس والخميس الكبير والرّسل، فليماه اللّقان طقسٌ يختص بها في غير المعنى الذي لمياه المعمودية^(٩).

^٧ أشارت المؤرّخة الأستاذة إريس المصري في أحد أجزاء كتابها "قصّة الكنيسة القبطيّة" إلى أن مصدر مقدّمة قانون الإيمان هو أحد الجامع المكاتبة التي عُقدت في مدينة الإسكندريّة، بدون أن توضّح أيّ مجمع تقصد، أو تاريخ هذا المجمع، أو المصدر الذي نقلت عنه ذلك.

^٨ BSAC., t. 11, p. 72.

^٩ القُصص يوحنا سلامة، اللالئ النّفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، الجزء الأوّل، الطبعة الثالثة، مصر، ١٩٦٥، ص ٥١

(١٢) التّفخ في الماء ثلاث مرّات مثال الصّليب ورشمه بالصّليب

ينفخ الكاهن في الماء ثلاث مرّات مثال الصّليب وهو يقول: "قدّس هذا الماء وهذا الزيت، ليكونا لحميم الميلاد الجديد آمين. حياة أبدية آمين. لباس غير فاسد آمين. نعمة النبوة آمين. تجديد الرّوح القدس آمين. لأنّ ابنك الوحيد ربّنا يسوع المسيح الذي نزل إلى الأردن وطهره شهد قائلاً: إن لم يولد أحدٌ من الماء والرّوح لا يستطيع أن يدخل ملكوت الله. وأيضاً أمر تلاميذه القديسين ورسله الأَطهار قائلاً: اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم".
وهنا يرشم الماء بالصّليب ثلاث مرّات ويقول:

"باسم الآب والابن والرّوح القدس. أدخلنا أيها القادر، ونجّنا أيها القدّوس. أرعد يا الله الآب ضابط الكل على هذه المياه، لكي بها وبروح قدسك تجدّد ميلاد عبيدك الذين تقدّموا إليك بقوّةك الإلهية. اجعلهم مستحقّين غفران خطاياهم واللباس غير الفاسد. بالتّعنة والرّافة ... الخ".

وواضح من التّرتيب السّابق ذكره أنّه بينما يكون التّفخ في المياه ثلاث مرّات، تأتي صيغة الصّلاة المصاحبة للتّفخ ضمن خمس طلبات تُختم كلُّ طلبية منها بـ "آمين". وهنا حدث تداخل بين ثلاث نفحات في مقابل خمس طلبات. أمّا البابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) فيذكر أنّ الكاهن يقول ثلاث مرّات: "قدّس هذا الماء". وفي كلِّ مرّة منها يرشم الماء بطرف الصّليب الذي في يده. بمثال الصّليب. ثمّ ينفخ في الماء مرّة واحدة بعد كل رشم من الثلاثة رشومات السّابق ذكرها. وباكتمال ثلاثة رشومات، يكون الكاهن قد نفخ في المياه ثلاث مرّات. ويكتمل الكاهن الأوشية إلى عند قوله "باسم الآب والابن والرّوح القدس"، فيرشم الماء أيضاً ثلاث مرّات بمثال الصّليب، ثمّ يكتمل الأوشية إلى آخرها.

إنّ رشم الماء بالصّليب يعني ختمه؛ فكلمة يرشم في اليونانية σφραγίζειν (سفر اجيزين) قد انتقلت كما هي إلى اللّغة القبطية، وهي في العربية "رشم" أو "وشم". وختم المياه بالصّليب أو رشمها به، هو تقليدٌ سحيقٌ في القَدَم نقرأ عنه منذ زمن البابا ثاؤفيلس البطريرك الإسكندري الـ ٢٣ (٣٨٥-٤١٢م) عندما رأى قضيباً^(١١) يرشم σφραγίζειν الماء، وذلك في وصفه للأعجوبة التي حدثت مع أوريوسوس، فيقول البابا ثاؤفيلس: "وبينما يُصلون على الجرن κολυμβάθρα جاء قضيب من نور ورشم المياه"^(١٢).

والتّفخ في الماء ورشمه بالصّليب ثلاث مرّات في طقس المعمودية ممارسة طقسية لا تعرفها الكنيسة اليونانية في خدمة المعمودية^(١٣). وبانتهاء التّفخ في المياه، ورشمها بالصّليب، وتكملة الأوشية التي يُصلّيها الكاهن، يذكر كتاب المعمودية أنّ الشّماس يقول: "صلّوا من أجل السّلام الكامل، والمحبة، والقُبلة الطّاهرة الرّسولية. ياربُّ ارحم". وهذا المرء لم يرد في أيّ مصدر طقس آخر لسرّ المعمودية.

أمّا البابا غبريال الخامس فيذكر أنّه يُقال أسبسموس: "هوذا يوحنا الصّابغ قد شهد قائلاً: إنّني عمّدتُ مخلصي في مياه الأردن ... الخ". وما يتلوه من أرباع العذراء والملائكة ويوحنا والشهداء^(١٤). ثمّ يقولون: نسجد لك أيها المسيح ... الخ. فيقول الشّماس: Προσφάριν قدموا^(١٥) على الرّسم ... الخ. فيقول الشّعْب: رحمة السّلام، معمودية التّسييح.

والحقيقة، وبعيداً عن شرح يكون مكانه في القدّاس الإلهي، فإنّ مرد الشّماس السّابق ذكره، يلزم أن يبدأ بالقول: "قفوا بخوف وإلى الشّرق انظروا نصت"، لأنّه ليس هناك تقديم للقرايين في قدّاس مياه المعمودية.

^{١١} في القبطية Σπεραβλος وفي اليونانية ῥαβδος أي قضيب Rod .

^{١٢} BSAC., t. 11, p. 72.

^{١٣} BSAC., t. 11, p. 55, 72.

^{١٤} هذه الأرباع هي طلب شفاعة العذراء والملائكة ويوحنا المعمدان ... الخ، وهو طقس القدّاس الإلهي في وضعه القديم حتى مطلع القرن العشرين حينما حلّ مرد "بشفاعات والدة الإله القديسة مريم ... الخ" محلّ هذه الأرباع كما نعرفه اليوم.
^{١٥} "قدموا"، وليس "تقدّموا".

ولقد ذكر كتاب المعمودية المطبوع، أنّ مرد الشمّاس السّابق ذكره مباشرة هو: ”قبّلوا بعضكم بعضاً بقبلة مقدّسة. ياربُّ ارحم، ياربُّ ارحم. نعم ياربُّ الذي هو يسوع المسيح ابن الله اسمعنا وارحمنا. تقدّموا (قدّموا) على الرّسم، قفوا برعدة وإلى الشّرق انظروا. ننصت“، وهذا أيضاً غير دقيق.

ولم يُشر أيُّ مصدر طقسى إلى ذلك. أمّا القس أبو البركات بن كبر فيذكر ما يلي: ”يقول الشمّاس: قفوا جيّداً، قفوا بخوف، قفوا بإنصات، قفوا بسلامة ومحبة، قفوا بخشية ورعدة وخشوع، تقدّموا برعدة“. وغالب الأوقات تختصر الشمّامسة قفوا حسناً، ويقولون تقدّموا فقط“.